

أسرار الصيام

بقلم الأستاذة / لطيفة بن سعيد

مرشدة دينية بولاية أم البواقي

بالتفكير فيها وفي عواقبها الوخيمة كالخمر والميسر والسرقة والزنا... فتركها رجاء الوعد ومخافة الوعيد كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ (3)

أما القلبية : فأسقام وأرجاس تصيب القلوب والنفوس، وهذا النوع لا يقوى الإنسان على تركه بالتفكير، بل هو في حاجة إلى رياضة ودربة النفس على التطهر منه بمطهرات نفسية وإيمانية لأنه ذو طبيعة نفسية كالانغماس في الشهوات المختلفة؛ كالإسراف في الأكل ولهو النساء مثلاً...

وهذا الإفراط يخلّ بالتوازن الفطري بين قوى الإنسان المختلفة؛ الروحية والجسدية والعقلية، فيحدث تضخم للقوى الجسدية، وضعف للقوى الروحية والعقلية ويمرض القلب كنتيجة

إذا كان الصوم الذي هو الامتناع عن الأكل والشرب ليس غرضه تحريم الحلال بدليل أنّ الامتناع محدّد بفترة زمنية معيّنة، فما السر الذي تتضمنه هذه الشعيرة المشتركة بين جميع الشرائع من حيث الأصل وإن اختلفت التفاصيل والكيفية من شريعة إلى أخرى؟

يقول الله عز وجل مبينا حقيقة الصيام: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ (1).

تحدّد الآية الحكمة أو الغاية من فرضيته وهي تقوى الله عز وجل.

والتقوى يقصد منها معنيين؛ الأول: اتقاء (ترك) المعاصي، والثاني: تزكية النفس أو تنميتها بالخيرات والبركات. (2)

إذا قصدنا المعنى الأول بالتحليل وجدنا المعاصي نوعين: مادية وقلبية. فأما المادية : فيترفع عنها الإنسان

لذلك وتنعكس آثار هذه العلل على سلوكيات الإنسان وأقواله.

انطلاقاً من ذلك يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: هل يصوم الإنسان صياماً صحيحاً ويكون يوم صومه ويوم فطره سواء؟! أم أنّ في هذه العبادة من الأسرار ما يفسر لنا قوله ﷺ: "للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه". (4)

في هذه الصفحات التي أعرضها محاولة لاستخراج بعض أسرار الصيام المخفية في هذه الفريضة نستنتجها من خلال التدبر في بعض النصوص من القرآن والسنة الشريفة.

أولاً: الأسرار النفسية:

يقول الله ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾. (5)
س / كيف يحدث مرض القلب؟

الإنسان



الإفراط منه في رمضان

تضخم القوى الشهوانية
(الجسمانية)

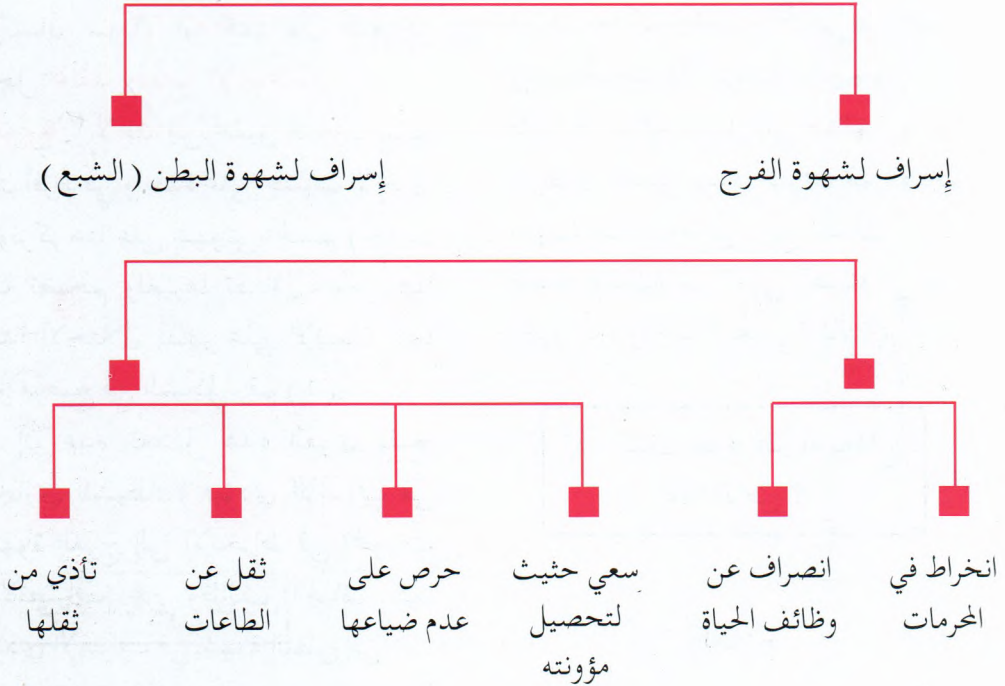
تضائل قوى الروح

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟
فقال: الفم والفرج

سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما
يدخل الناس الجنة؟ فقال : تقوى الله
وحسن الخلق.

عدم تعديل هذه القوى

فتح مجاري الشيطان



شكل رقم 1 مخطط لمراحل مرض القلب في رمضان خاصة

○ شرح المخطط

يقول الله : ﴿ونفس وما سواها
فألهمها فجورها وتقواها﴾⁽⁶⁾، الإنسان
من حيث التركيب الإلهي يتشكل من
جسد (جسم) عقل / روح، ولكل
واحد من هذه الثلاثية غذاء؛ فغذاء
الجسد إشباع شهوتي البطن والفرج،
وغذاء العقل : المعارف والعلوم، وغذاء
الروح : العبادات والتفكير وتركيب النفس
أو تحسين الأخلاق للناس، وحتى يكون
الإنسان سوياً، أو كما قال الله عز
وجل: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن
تقويم﴾⁽⁷⁾ لا بد من تحقيق التوازن بينها
فإن أفرط في واحدة على حساب الأخرى
(ونركز هنا على شهوتي الجسم) حدث
لها تضخم ولغيرها تضائل، ومن هنا
يبدأ الاختلال يظهر على الإنسان كما
هو موضح في الشكل رقم (1)

إنَّ عدم تعديل هذه القوى يفتح
مجاري الشيطان، فيؤدي الإسراف في
شهوة الفرج إلى الانخراط في المحرمات
والانصراف عن وظائف الحياة، كما
يؤدي الإسراف في شهوة البطن إلى :

- 1- السعي الحثيث لتحصيل مؤنثه،
- 2- الحرص على عدم ضياعها،
- 3- تقل عن
الطااعات،
- 4- تأذي الروح من ثقلها،
ومنها جميعاً بمرض القلب مصداقاً لقوله

ﷺ : (ما ملأ ابن آدم وعاء قط شر من
بطنه) وقوله تعالى : ﴿قد أفلح المؤمنون
... والذين هم لفروجهم حافظون﴾⁽⁸⁾.
وإن كان هذا المرض خطير على
الكيان البشري، حيث حوله من (أحسن
تقويم) إلى (أسفل سافلين) فإن علاجه
ممكن لمن كانت له إرادة قوية للخلاص
وعزيمة على الرشد كل ذلك يجده في
قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب
عليكم الصيام كما كتب على الذين من
قبلكم لعلكم تتقون﴾⁽⁹⁾ وفي قوله ﷺ :
(الصيام جنة فلا يرفث ولا يجهل. وإن
قاتله أو شاتمه فليقل إنني صائم - مرتين
- والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم
أطيب عند الله من ريح المسك، يترك
طعامه وشرابه من أجلي الصيام لي وأنا
أجزى به، والحسنة بعشر أمثالها)⁽¹⁰⁾.

إذن كيف يقوم الصيام بعلاج
هذا المرض ؟

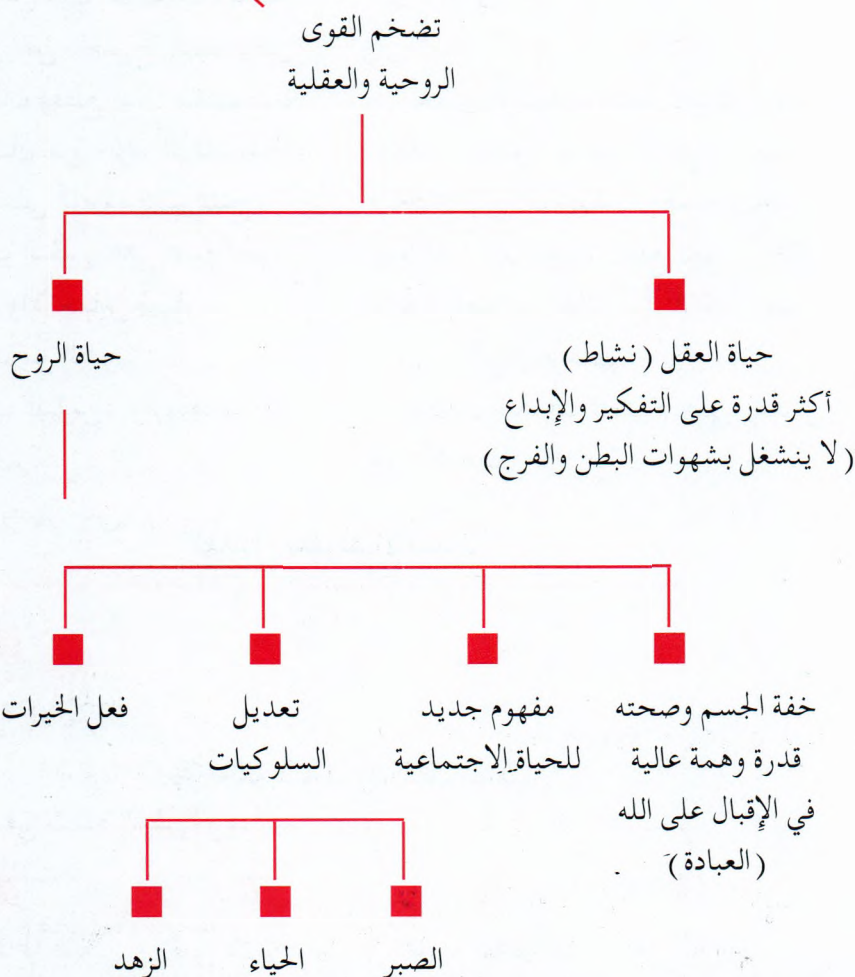
العلاج

اكتساب طاقة روحية

إضعاف هذه القوى والاكتفاء بما
يحفظ الحياة (كعبادة) اختياري

الصيام

غلق مجاري الشيطان
وقطع (طرق الشهوة)
واكتساب طاقة وإرادة
وهمة عالية



شكل رقم 2 صيرورة علاج مرض القلب

○ شرح ونتيجة

إنَّ معنى إضعاف القوى الجسمية يقتضي الاكتفاء بما يحفظ الحياة فقط والتنازل عن الزائد كله، والصيام بفضل خصائصه الوقائية، وكعبادة يؤديها الإنسان راغبا مختارا، يحمي الجسم من الاندفاع في براثن تلك الشهوات ويكبح جماح النفس من الجنوح إليها بغلق مجاري الشيطان وقطع طرق الشهوات، فيكسب الإنسان من خزان الإيمان طاقة ورغبة الإقبال على الله ومن ثم ينتج:

1- تهذيب النفس على عدم الجري وراء الشهوات والانغماس فيها.

2- تطهيرها من الشر.

3- تهذيب النفس، وترويضها على فضائل الأعمال.

4- تنمية طاقات الخير فيها.

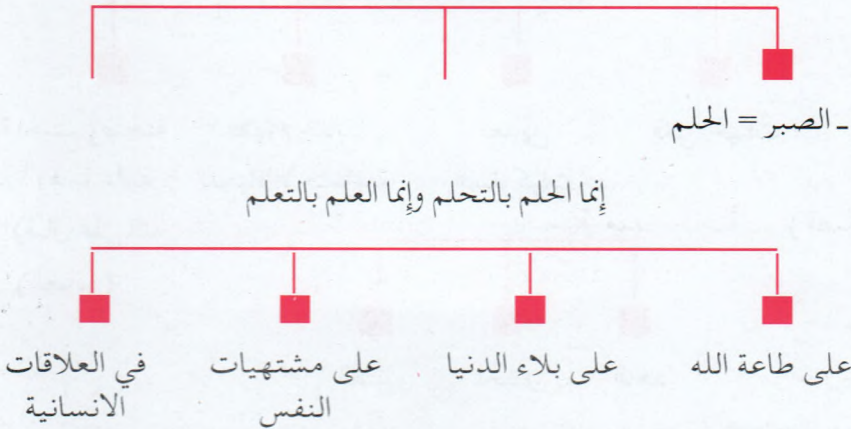
5- عدم إهدار حقوق الجسم لأنه يعتمد على المخزون الداخل من الغذاء إلى غاية نهاية النهار حيث يحتاج إلى وجبة الإفطار التي تعينه على قيام الليل، ووجبة السحور التي تقويه على صيام اليوم الموالي.

ثانيا: الأسرار الأخلاقية:

تعتري الإنسان أحيانا نزعات النفس الأمارة بالسوء وخاصة في رمضان، فيحتاج إلى أن يهذب نفسه ويحسن أخلاقه: "إن العبد ليبليغ بحسن الخلق درجة الصائم القائم" (11) كما قالت عائشة رضي الله عنها.

فكيف يساعد الصيام على تعديل هذا السلوك؟

تعديل سلوك الإنسان



مخطط رقم 3 لتعديل السلوك

قدرة على
ضبط النفس

قدرة على تحمل
الجوع والعطش

الصوم = نية
العبادة

يعقوب عليه السلام لفقد ولديه يوسف وأخوه فملا صبرا واحتسبا من الله عليهما بإجابة دعوتيهما. وبذلك تحقق أن (الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شطر)⁽¹⁷⁾ وداع من دواعي إجابة الدعاء. 3 - الصبر على مشتبهات النفس = قدرة على تحمل الجوع = قدرة على عدم الإنغماس فيها.

1 / الصبر على :

أ - لذات الدنيا التي يملك في يده، والصبر على السراء أشد ولكنه ممكن لأنها في يده بدليل الطعام والشراب في تناول يده ويطرف عنه طاعة لله عز وجل.

ب - عن التطلع لما في أيدي الآخرين ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾⁽¹⁸⁾.

ج - عن الاستجابة لداعي الشهوات والجنسية منها خاصة : (قصة سيدنا يوسف عليه السلام).

د - عن الاستجابة لداعي الغضب : ليس الصيام عن الأكل والشرب فقط، وإنما عن الرفث والصخب ... وخير مثال على ذلك قوله تعالى : ﴿لئن

الصوم نصف الصبر⁽¹²⁾ كما يقول الغزالي لذلك كان الصوم من أعظم العبادات التي يتعلم منها المسلم هذا الخلق العظيم الذي لا تستمر حياة المسلم إلا به نظرا لما يتخللها من أطوار مختلفة.

1 - الصبر على طاعة الله :

قبل العمل = النية والإخلاص (من كانت هجرته لله ورسوله فهجرته لله ورسوله ..)⁽¹³⁾.

عند العمل = المداومة عليه إلى آخره ﴿و نعم أجر العاملين﴾⁽¹⁴⁾.

بعد العمل = عدم الرياء فيه وعدم المن ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى..﴾⁽¹⁵⁾.

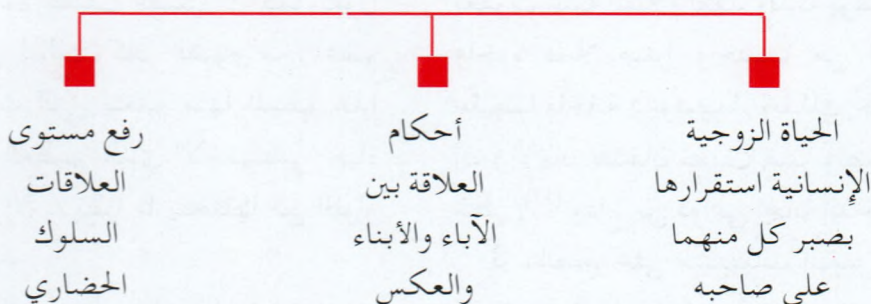
2 - الصبر على بلاء الدنيا = قدرة على الجوع = قدرة على تحمل بلاء الدنيا، مصيبة موت - فقر - خوف لقوله تعالى :

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾⁽¹⁶⁾ ومن أجمل الأمثلة

والنماذج الحية عليه صبر النبي أيوب عليه السلام على مرضه وفقره وترك كل أهله له حيث لم يبقى إلا لسانه وقلبه يذكر الله بهما، وكذلك قصة صبر النبي

هـ - الصبر في العلاقات الانسانية:
يمكن أن نتعلم من الصوم أيضا :

بسطة إلي يدك لتقتلني ها أنا بباسط
يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب
العالمين ﴿١٩﴾.



- 1 - قدرة على ضبط النفس.
- 2 - التحكم في العواطف والانفعالات.
- 3 - توجيه السلوكيات والعلاقات الوجهة التي ترضي الأدب والذوق الإنساني الرفيع.
- 4 - عدم جرح إحساس أو إيذائه دون موجب.
- قصة لقمان وابنه
- قصة ابراهيم وأبيه
- قصة نوح وابنه

3- الزهد

2- الحياء

أن تكون الدنيا في اليد لا في القلب
تماما كما أن الطعام والشراب في بيتي
فأترفع عنه طاعة لله وتقربا منه

الذي يصوم إيمانا واحتسابا
يستحي أن يخلط صيامه بالرفث
والصخب واللغو.

○ شرح ونتيجة

أما الحياء، فقه اخترته لأنه خلق الإسلام، فلا استغناء لسلوك المسلم عنه؛ وبالتالي فقدانه في السلوك الإنساني يقتضي ترويض النفس عليه من جديد، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

إن الصيام من أنجع الأدوية التي تعيد للمسلم هذا الخلق الإسلامي العظيم الذي يقول عنه رسول الله ﷺ : (إن الحياء خير كله) الصيام (عبادة)، والعابد يعلم أنه في حضرة الله عز وجل، ومن ثم فهو يستحي أن يقول أو يفعل ما لا يليق بجلال الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فهو في حال مراقبة صارمة ودائمة لتصرفاته خشية الإخلال بالتناغم بين حال العابد وجو العبادة وجلال المعبود.

وهكذا الإنسان يكون في أحواله كلها، فما دام في عبادة دائمة لله فلا بد أن يصاحبه الحياء حيثما كان وعلى أي حال كان أسوة بسيدنا النبي الكريم الذي تروي عن خلقه أمنا عائشة رضي

الله عنها تقول : (لم يكن فاحشا ولا متفحشا، ولا صخبيا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح).

وهكذا يربي الصيام المسلم على خلق الحياء، فكما يكون الصيام جنة فكذلك الحياء للمسلم جنة إذ لا يأتي إلا بالخير. وأما الزهد فإن الذي يملك الصبر على الطعام والشراب في رمضان وهما في تناول يده فيترفع عنهما طاعة لله عز وجل، يستطيع الصبر على ما زاد عن الحاجة من ملذات الدنيا المختلفة التي يملك في يده طاعة الله عز وجل وهو الزهد الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ .

الخلاصة :

لا يريد الله عز وجل بالصيام تعذيبنا بل يريد تربيتنا وتهذيب نفوسنا بدليل قوله تعالى : ﴿ **أياما معدودات** ﴾ شهر محدود (وهي دلالة على التقليل) قلة الأيام ومحدوديتها لتهوين أمر عظيم حتى نقوي ونعزم وترتفع الهمة لأداء العبادة فيها على أكمل وجه.

الفهرس

- (01) سورة البقرة / 183 - 184
(02) أنظر تفسير التحرير والتنوير، تفسير الآية 183 من البقرة، الدار التونسية، ج 02.
(03) سورة المائدة / 90.
(04) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، ج رقم 1904 / 118.
(05) سورة الشمس / 7 - 8.
(06) سورة الشمس / 4 - 5.
(07) سورة التين / 05.
(08) سورة المؤمنون / 1 - 5.
(09) سورة البقرة / 183.
(10) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب : فضل الصوم، رقم 1894، 103/4.
(11) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب : حسن الخلق.
(12) أنظر : إحياء علوم الدين، الغزالي، دار القلم، 63/4.
(13) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم 1.
(14) سورة آل عمران / 136.
(15) سورة البقرة / 14.
(16) سورة البقرة / 155.
(17) الغزالي، المرجع السابق.
(18) سورة طه / 13.
(19) سورة المائدة / 28.
(20) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب : عدد شعب الإيمان وفضيلة الحياء، ج 2.
(21) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب : لم النبي فاحشا ولا متفحشا / واللفظ الإمام أحمد.